الفصل الخامس

الوصف فى العصر الأموى

الأخطل — الفرزدق — جرير — العجاج — رؤبة بن العجاج — الراعى — ذو الرمة

دخل العرب فى طور جديد حين ظهر الإسلام، فأصبحوا يقاتلون من أجل الدين فى جيوش كبيرة ، وكانت لهم وقائع ومعارك ضاعت أوصافها أو وقفوا دون رسمها لجدة الموضوع وخطورة المقال ، فنحن لم نقع على شىء فيها فحرمنا هذه الثروة . ولما كان عصر بنى أمية ظهر الشعراء فى العراق وانتقلوا إلى الشام ، ولكنهم ظلوا على الأوصاف القديمة الجاهلية ، فركب الأخطل ناقته وشبهها بالثور الوحشى أو بحمار الوحش، ووصف المعركة بين الثور وكلاب الصيد كما فعل الجاهليون قبله ، لذلك ألحقه بعض النقاد بالشعراء فى الجاهلية .

وجمد الفرزدق عند القديم البدوى من الألفاظ والصور ، فوقف على الأطلال كما وقف امرؤ القيس حتى لكأنه سرق عباراته حين يقول :

وقوفاً بها صحبى علىّ وإنما عرفتُ رسوم الدار بعد توهم
يقولون : لا تهلك أسى ولقد بدت لهم عبرات المستهام المتيم
فقلت لهم : لا تعذلونى فإنها منازل كانت من نوار بمعلم

فهو لا يحس إحساس القدماء ولكنه يقلدهم فى قصيدهم ويتصنع الشوق إلى ديار الأحبة ، على أنه فى مفرداته يبدو أقل غرابة وأخف إمعاناً فى القديم منهم ، فقد وصف الذئب وقال :

وليلة بتنا بالغريين ضافنا على الزاد ممشوق الذراعين أطلس
تلمسنا حتى أتانا ولم يزل لدن فطمته أمه يتلمس
ولو أنه إذ جاءنا كان دانياً لألبسته لو أنه كان يلبس
ولكن تنحى جنبه بعد ما دنا فكان كقيد الرمح بل هو أنفس
فقاسمته نصفين بيني وبينه بقية زادى ، والركائب نعس

ونحن حين نوازن بين هذا وبين ما قاله المرقش الأكبر نجده يحذو حذوه ويتبع خطوه ، فذاك يوقد النار ويشوى للذئب ، وهذا يقاسمه الزاد . على أن المرقش وصف الذئب بعدها فرحاً جذلان يهز رأسه غبطة لهذا الذى أصابه ، والفرزدق يجد فيه وسيلة لامتداح كرمه فحسب ، لا يلم بالذئب إلاّ فى قوله : ممشوق الذراعين أطلس ، ولا يرهبنا وصفه له ، كأنه كلب أو قط أو أى حيوان آخر . وحين نقفه إلى جانب الشنفرى نجد الشاعر الجاهلى قد وصف الذئب فأدخل الرعب فى قلوبنا ؛ وصور اللون والملامح والقسمات ، ولم يدعه إليه ولم يقاسمه زاده .

والفرزدق وصف الذئب ثانية فقاسمه الزاد ووقف منه موقف الحذر ، وعاهده عهداً لا يخونه ، ونحب أن نروى هذه الأبيات شاهداً على الوصف عنده :

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت بنارى موهناً فأتانى
فلما دنا قلت : ادن دونك إننى وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أسوى الزاد بينى وبينه على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضـــاحكاً وقائم سيفى من يدى بمكان :
تعش فإن واثقتنى لا تخوننى نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما أخين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى أتاك بسهم أو شباة سنان

والغريب أن الفرزدق وضح فى لفظه وابتعد عن الإغراب فى مفرداته ، وهو

يقص حكاية الذئب ، ولعل ذلك كل ما يحمده له هؤلاء النقاد الذين يريدون سهولة التعبير فى العصر الأموى ، ولكنهم معنا فى أنه لم يصنع شيئاً فى الوصف كما صنع الأجداد .

وجرير بن عطية ، لا يختلف عن زميليه فى الوصف ، فقد وقف كذلك على الأطلال ، ووصف رحيل الأحبة وبكى الظعن ، ولكنه كان صورة للقدماء . ويفسر النقاد هذه الظاهرة بأن الأمويين وجدوا فى الشعر الجاهلى تمثيلاً لماضيهم فأصبحوا يعتزون به ويشتدون فى روايته ومن ثم يسعون إلى تقليده ، وبعضهم يذهب إلى أن حياة البداوة الماضية هى التى ساقت إليهم النصر وملكتهم زمام الفرس والروم ، لذلك تمسكوا بأهدابها وحنوا إليها ، وساعد على ذلك نهوض الرواة وعلماء اللغة إلى البحث عن هذا الماضى الجاهلى وعناية الخلفاء به وحبهم له ، فجهد الشعراء الأمويون فى أن يقلدوه إرضاء للعلماء والخلفاء ومن بيدهم سلطان الذوق الأدبى ، ومن ثم كان الجمود والوقوف عند معانى الجاهليين حيناً ، والتمسك بألفاظهم حيناً آخر ، فعادت الحياة الجاهلية ثانية إلى دنيا الأدب ، وحمل هذا اللواء القديم كبار الشعراء فى هذا العصر .

وسواء أصحت نظرية النقاد أم كانت فرضية تحتمل النقد ، فإننا نرى طبقة من الشعراء فى هذا العصر عادت إلى القديم وتغنت بشعره ، وزادت عليه فى غريب المفردات ، ونقصد بهذه الطبقة العجاج وابنه رؤبة فى الرجز ، وراعى الإبل وذا الرمة فى القصيد .

أما عبد الله بن رؤبة التميمى البصرى ، المعروف بالعجاج ، فقد وصف الأطلال فى أراجيزه ، وصور الحياة البدوية كما صورها القدماء ، فرسم الصحراء وسرابها وغيثها وبرقها وحيوانها ، وعرض للفرس والناقة وبقر الوحش والذئب والنمر والأسد والنسر والجراد والذباب والبعوض . . .

وهذه الأراجيز شديدة الأسر فى مفرداتها ، تغوص على الغريب حتى يخيل إلينا

أن الشاعر لم يغادر فى معاجم اللغة قافية إلا صادها . وأما معانيها فقديمة تقوم على التشخيص والتمثيل الحسى ، تتأثر امرأ القيس والمهلهل سواء فى وصف الليل وأهواله أم فى رسم الناقة وحمار الوحش وثور الوحش . والجديد فيها أنها أوردت المشتقات والجموع ومشاكلة الألفاظ ، كأن الرجل صنعها للغة لا للشعر ، لكثرة الإغراب فيها ، والتكلف فى سبكها والتصنع فى رصفها .

وابنه رؤبة بن العجاج ، ساربهذه الأراجيز سيرة أبيه حتى لقد بلغ بعضها أربعمائة قافية ، جعلها لأبواب الشعر كلها حتى مديح الخلفاء العباسيين ، فمزج بين الموضوعات ووازن بين الأشخاص والأنهار ، وفضل الممدوح على البحر أو النهر ، ووصف البادية فى سرابها ومفازتها ، وأطال فيها حتى هام بها اللغويون ، ففيها كل ما يريدون من غريب الأفعال والأسماء والمصادر . وهى على هذا تضم صوراً بارعة فى وصف الموضوعات ، لكن الوصول إلى معانيها يقتضى نبش المعاجم وفهم الصور . ولهذا أحبها الخلفاء وقربوا الشعراء لإجادتهم فى سبكها إحياء لماضى اللغة ومعانيها . وسنرى أن الشعراء هاموا بها حتى فى العصور العباسية فسعوا إلى تقليدها وضربوا فى ذلك بسهم كبير ، كأبى نواس وابن المعتز وأبى فراس الحمدانى .

وأبو مرقال الزفيان ، فعل ما فعله العجاج وابنه رؤبة ، ولكنه كان أسهل لفظاً ، وأقل إغراباً ، على أنه لم يصنع جديداً مبتكراً فى المعانى البدوية القديمة ، ولا نحب أن نروى من هذا الرجز ، فهو يجوحنا إلى شرح وعناء ، نحن عنه فى غناء لضيق الصفحات ، وإنما نحيل إلى « مجموع أشعار العرب » ، وقد طبعه فى صدر هذا القرن المستشرق أهلورت ، ففيه شفاء الغليل .

وأما راعى الإبل عبيد بن حصين النميرى ، فقد ظعن إلى البادية ووصف لإبل بأساليب القدماء ، ورسم حياة الرعاة ، فسمى بالراعى . وكان تصويره للإبل شبيهاً بصنيع القدماء فى ضخامتها وقوتها ، ولكنه أضاف إليها وصف الحادى والراعى

وتأليف القطيع . وعهدنا بالجاهليين أنهم يصفون الناقة بمفردها تسير ، فيشبهونها بحيوان الوحش ، ولكن الشاعر صور عادات البدو فى نحر الإبل والشجاعة تصويراً يخيل معه إلى السامع أن الشاعر مفتون بها كما فُتن الغزلون بمعشوقاتهم ؛ وهو مع هذا لم يخل من إغراب فى اللفظ دفع اللغويين إلى جمع شعره والعناية به والتعلق بمفرداته .

والشاعر ذو الرمة هو الذى حمل لواء البادية كما قالوا، فاتجه إلى وصف الإبل وعاج حيناً على أوصاف القدماء فى رسمها كامرئ القيس وعنترة وزهير ، ثم برع فى وصف الطبيعة وألوانها ، فعمد إلى الدمن والأطلال والرياح والأمطار ، وهو حين يصف ناقته فى قصيدته المشهورة « ما بال عينك منها الماء ينسكب » يجعلها هزيلة تشكو الضعف والمرض والأوجاع ، ولكنها تسبق الإبل ولا يصيبها وني ولا تعب ، وإنما تجرى كالريح العاتية وتثب كما يثب حمار الوحش حين يعدو كالمجنون أو الهارب بالإبل حين الغارة لعله يبلغ العين . فإذا بلغها وصف الضفادع والحيتان والصياد والصقر والحبارى والحمار الوحشى والثور والظليم .

هذا كله فى قصيدة واحدة ما نرى لها شبهاً فى أدبنا العربى قد جمعت أوصاف الحيوان وأنماط التشبيهات ، فكأنها متحف يغص بهذه الألوان الحية ، وقد أعجب بها الشعراء منذ القديم فتمنى جرير أن تنسب إليه ! ذلك لأنها مقسمة مرتبة مهذبة . وأكثر معانيها صورة للشعر الجاهلى ، لكنه نظمها من جديد وأجاد فى عرضها لتشمل شعر الطبيعة كله ، لعلها تغنى عن الدواوين مجتمعة ، ولا تغنى كلها عنها . فهو حامل لواء الوصف فى العصر الأموى ، وقد قال فيه ابن قتيبة : « إنه أوصف الناس لرمل وهاجرة وفلاة وماء » .